أشكال الرمز والقص
عند ((ايفالد فليسار))

obeikandl.com

obeikandl.com

من المعلوم أن القصة فن يقوم فى جوهره على الحكاية.وما تستتبعه من شخصيات وأحداث وصراع ،وهذا يعنى أن المدلول والمعنى يلعب دوراً كبيراً فى القص فلمعانى الكلمات ومدلولاتها كما هى مجسدة فى الشخصيات والأحداث دور أكبر فى الدلالة الواضحة مما لها فى الشعر مثلاً.الذى يولى الموسيقى والظلال والإيحاءات البعيدة القيمة الأكبر. ومن هنا تقع مجموعة((حكايات التجوال)فى التوفيق الصعب بين القص والرمز.ولكن الكاتب الأصيل دائماً قادراً على إحداث هذا التوازن المرهف بين متناقضات التشكيل الجمالى ومن واقع محاوراتى مع ((إيفالد فليسار)) أدركت أنه يولى الرمز أهمية كبرى فى أعماله.ولكن يبقى العمل الفنى نفسه هو المحك الجمالى الفعلى لإثبات ذلك أو نفيه.ومن واقع رؤيتى للرمز فى هذه المجموعة القصصية أرى أنها تهتم((بالرمزية التركيبية)) التى تجدل بناءها الفنى من رمزية الفن وتفصيلات الواقع المتراكب وقبل أن نحدد هذا المصطلح الرمزى لدى (فليسار) أود أن أعرض فى وجازة للرمز والرمزية مدرسة وفناً فمن المعروف أن الرمزية عالم واسع من الدلالات فمنذ أن خلق الإنسان والرمز محرك أساسى له.فالإنسان فى جوهره كائن رمزى،ومن الممكن أن نعرفه إلى جانب كونه كائن مفكر،متخيل،ضاحك.....بأنه كائن مشير،أى كائن رمزى فى الأساس ولم

يتخل الإنسان عن الرمز فى أى عمل من أعماله سواء العملية أو الفكرية أو التخيلية ،وقبل أن تظهر الرمزية مذهباً جمالياً خاصاً،كان الإنسان يعالج الرمز فى صور متعددة ،فلما تعقد فكر الإنسان وزادت حصيلة وعيه بذاته وبالعالم من حوله بدأ فى خلق رموز أكثر تعقيداً وتجريداً،ومن هنا كانت المدرسة الفرنسية الرمزية فى أواخر القرن التاسع عشر عندما أرخ(جون موريز) للحركة فى مقال له بجريدة (الفيجارو) فى(١٨ سبتمبر١٨٨٦) وعرفها بأنها ((ضد إعطاء المعلومات.وضد الخطابية وضد العاطفية الزائفة والوصف الموضوعى.وبدلاً من هذا كله فإن هدف الحركة هو محاولة إعطاء الفكرة والعاطفة غطاء خارجياً من الشكل) (٣)

هذا التعريف المبكر للمصطلح لا أظن الرمزية قد وقفت عنده. فدائماً المصطلحات الأصيلة لها تاريخها الطويل. وتصوراتها المعرفية والجمالية المتراكبة. فلم يكن الشعراء الرمزيون على منزع رمزى واحد بل كانوا منازع شتى،فرمرية(فليرن)غير(بودلير)و(ملارميه)و(رامبو)فأول (من مجد الرمز بولدير.وفيرلن أول من أستعمله لاشعورياً.وملارميه أول من أقام مفهوماً ميتا فيزيقياً لتفسيره وتبريره ،ولقد كان (ملارميه)بنظرياته وتجاربه الأدبية خلاصة هذه الحركة)(٤).

فهناك الرمزية الميتافيزيقية ،وهناك الرمزية الصوفية الغيبية.وهناك الصوفية المثالية الجمالية التى تؤمن بوجود عالم مثالى وراء عالم الحواس والموجودات المادية ،وهناك الرمزية الإنسانية التى تهتم بالتعبير عن العواطف والأفكار فى نسق تصويرى قائم على كثافة التلميح ،إلى آخر هذه التصورات ،ولكن ما يهمنا من هذا العرض للرمز والرمزية أن نفرق بين الرمزية بمعناها الأدبى العام،والرمزية بمعناها المذهبى الخاص.وأن كاتبنا (فليسار)فيما نظن ينتمى إلى (الرمزية التركيبية الواقعية)بمعناها الأدبى العام،وأقصد بذلك التحديد أن العوالم القصصية لدى الكاتب تمتلك القدرة الفنية على قراءتها عبر مستويين .المستوى الحكائى القصصى المباشر والمستوى الحكائى الرمزى غير المباشر .ولكن هذا المستوى الرمزى قريب من الواقع الاجتماعى والحضارى الذى يعبر عنه،فهو لا يتجاوزه أو يقدم وسائط حسية جمالية تكون نسقاً تجسيمياً بديلاً عنه. فدائماً شخصياته وأحداثه وصراعات قصصه مرتبطة بالواقع المحيط بها ولكن الكاتب بما أوتى من أصالة فنية فريدة ،كان قادراً على التحرك ضمن الواقع وفوقه فى وقت واحد،فهو ينطلق منه ولا يعود إليه ،إنه يندغم بأعماقه لاستصفاء جوهره،وخفاياه وملواياه غير المرئية التى تحرك سطحه ،إن السطح الفنى للشكل القصصى عند الكاتب ناعم وأملس ومتدفق ولكنه معبأ بالمجهول

ومكتنز بالقلق والبحث عن المعيار الإنساني في شتى صوره ومراميه .فدائماً الحقيقة الظاهرة تخفي وراءها الحقيقة الباطنة الأكثر عمقاً وخطورة ودائماً الواقع المرئي يحيل على تشابكات هائلة غير مرئية إذن (فليسار)قد أفاد من الاتجاه الرمزي أبعاده ومراميه العميقة،فبعد أن انتهى المذهب الرمزي ،وجاءت من بعده اتجاهات أدبية عديدة ترك لنا ((هذا التوسع وهذا التعمق في مفاهيم الفن .فالرمزية هي الفن الذي ترك الواقع كسطح بسيط واضح للسطحيين وتعامل مع ما وراء الواقع كعمق ننفذ إليه فتنكشف لنا عوالم ورؤى تذهل الإنسان بهز كل مفاهيمه وأفكاره))(٥)

إن (فليسار)كاتب متمكن من فنه،قادراً على صوغ رؤاه صوغاً جمالياً محكماً.وقد يبلغ به الإحكام الجمالي مبلغاً يقع في الدروة من الإبداع كما في قصة (المد والجزر)أو(سيدالقطار) أو(السيدة ذات القبضة الحديدية).وتأتي القصة القصيرة عند(فليسار)أشبه بومضة فلاشيه مركزة،أو موجة تمتد ثم تنحسر مبينه عن عمقها،أو ضربات فرشاة حاذقة تحسد الجمال في أضيق حيز ممكن، فدائماً قصصه مائجة بهذا التركيز البالغ.القادر على الإيحاء والإشعاع الكلي .ومن هنا أستطيع أن أقول إن مجموعة (حكايات التجوال) ((كريستال قصصي مشع)) .فدائماً الكاتب يضغط قصصه في عمق تصويري جمالي قادر على الإشعاع المتعدد الضوء

والإيماء ،ونظراً لأن فن القصة القصيرة فن مراوغ وصعب فى تشكيلة الجمالى، إذ يقع فى المنتصف من فنيات الرواية وفنيات الرواية القصيرة بل يقع فى مفترق الطرق جماليات فنون متعددة حيث يأخذ من الشعر التكثيف والتركيز والتصوير ،ومن الرواية القصيرة القصر وعدم التمدد، إلى آخر ما أفاض فيه منظروا الفن من أن ((القصة القصيرة الجيدة هى التى تصور حالة إنسانية ،أو انطباعاً وجودياً،أو مشهداً مكثفاً،أو لقطة إنسانية مركزة ،وتكتفى غالباً بأضيق مساحة من الشخصيات والأحداث لتكون قادرة على إنجاز رؤيتها الجمالية فى أضيق مساحة جمالية وأكثفها((٦).

وإذا كانت القصة القصيرة عند(فلبسار) قد خضعت بدقة لهذا التكثيف الجمالى المشع،فإنه قد أخضعها أيضاً لقدرتى الانتقاء والتشكيل معاً، وهما قدرتان فنيتان نلمحهما دائماً عند أى كاتب أصيل ،القدرة على انتقاء المنظور الرؤيوى الإنسانى وهذا أمر يوجهه رؤية الكاتب للعالم أوحدسه الجمالى الخاص ،ثم القدرة على التشكيل، التى تسيطر على نسيج المفردات الجمالية المنتقاة وخلق تفاصيلها البنائية المتعددة، وتوجيهها إلى مسار جمالى ودلالى خاص .

إن الانتقاء والتشكيل لدى (فليسار)فى مجموعته القصصية (حكايات التجوال)قد بلغا حداً بعيداً من السيطرة التشكيلية جعلتنى أرى قصصه وكأنها استقطار جمالى ودلالى لا ينقص ولا يزيد فى صرامة البناء فالقصص فى هذه المجموعة، فهذه القصص لا تستطيع أن ترى فيها جزءاً أهم من جزء، ولا شكلاً مقدماً على مضمونٍ ،أو مضموناً مقدماً على شكل، أو حتى هذا التصور الفج لجدل الشكل بالمضمون، أوهذا التراتب التقليدى للبناء القصصى من البداية والأزمة والحل ،بل قصصه لوحات لونيه وجودية فيها حيوية الخلايا الحية وتفاعلها وتشابكها وتعددها فى وقت واحد ،فكل ما فى الخلية هو الخلية نفسها، وكأن قصصه قد نبعت من داتها،وانقادت لفكرتها العميقة،وانسابت تلقائياً فى مفردات تشكلها الجمالى من حدث وشخصية ووحدة شعور حتى تخليق الدلالة الكلية لها،نحس أن القصة لدى (فليسار)تنمو من داخلها، مثلها مثل باقى الكائنات العضوية الحية التى تنمو نمواً ذاتياً ،ثم نجد بعد ذلك هذه القصة العفوية المركبة قد أوغلت (ايغالاً)بعيداً فى المألوف حتى يتكشف فى النهاية،عن عالم من الغرابة والدهشة،بل نجد الكاتب فى كثيراً من قصصه يكشف عن اللانهائى البعيد فى المتناهى القريب ،وعن الكلى فى الجزئى ،وعن المعقد فى البسيط ،ومن ثمة فنحن دائماً مشددون.فى عالم (فليسار)

بين عالمين كليهما مختلف تماماً عن الآخر. أقصد بذلك عالم المفردات الحسية الجمالية التى يبنى بها قصصه،وعالم الباطن الجمالى الموحى من وراء العلم الحسى الظاهر.

وفليسار يلتقط موضوعاته القصصية فى(حكايات التجوال)من جميع ظواهر العالم، لا فرق لديه بين موضوعات تصلح للقص وأخرى لا تصلح، بل تصير الحياة بكل موجوداتها، وكائناتها، وأشيائها\ن وجوامدها مادة للقص، وقابلة للإشعاع الجمالى، العميق.(فصوت القطار) يكون موضوعاً لقصة ،و(بكم طفل) يكون صالحاً لقصة أخرى،ورقصة جميلة لقصة ثالثة وهكذا.فكل ما فى الوجود أشكال لا تتناهى للقص والجمال فالعالم نفسه قصة لا متناهية من الأشكال والألوان والدلالات ،وبذلك فإن (فليسار) يتمتع بهذا الإدراك الجمالى الخصيب للعالم من حوله فهو يفصل بين (الإدراك العملى)أو(الاقتصاد الإدراكى)والإدراك الجمالى الثر الفياض للعالم من حوله،فدائماً يقرأ الناس الأشياء والموجودات قراءة توجيه وضبط بمعنى قراءة الوسيلة للغاية (ذلك إن ما ندركه ونخبره ونحسه لا يتوقف فحسب على ما هو موجود بيننا ،بل يتوقف أيضاً على اهتمامنا وانتباهنا الانتقائيين)(٧)

وهذا يعنى أننا لا نلتقط كل شيٌ فى العالم المائج بالثراء من حولنا،بل نلتقط ما ركزنا عليه ساعة نفعنا ،وموقفنا فى إدراك ما ينفعنا إدراكه،أما (فابسار) الفنان فهو لا يجرد العالم من ثرائه الخصيب إلى أنماط أو نماذج عامة باهته،بل ينغرس فى عمق العالم ويسرف فى إدراكه ،ولا يعزل الذات عن إدراكه للأشياء ،بل يرى المتناهى فى الكبر فى المتناهى فى الصغر ، فالكاتب يرى العالم بصورة انفعاليه جمالية بما يوسع من أبصارنا ، بصائرنا معاً لنرى معه العالم من جديد طازجاً غضاً كأنه خلق لتوه ،إذ يرى الأشياء فى ذاتها ولذاتها فيرينا معه هذا الغنى الفنى المذهل المترسب فى أعماق كل شيٌ من حولنا ،ومن هنا يصير الفن اكتشافاً لدى (فليسار)أى اكتشاف ما اعتدنا علي رؤيته، حتى لم نعد نراه،وتحويل ما نراه واقعاً إلى حقيقته، ،فليس كل ما هو واقعى حقيقيا بالضرورة،وبالتالى فإن(فليسار)فى هذه المجوعة القصصية يفتح لنا الأبواب المجهولة فى هذا الوجود من خلال طرقة للأبواب المعلومة،والتى ألفنا طرقها معه حتى لم تعد تنفتح لنا عن أى شيٌ جديد،وبهذا نستطيع أن نقول عن(فليسار)أنه ((فاتح الأبواب المغلقة)) فى مشاهد العالم المنفتح أو(فنان المشهد الحاضر)الذى لا يراه سواه(فالأديب الفذ هو من حبته قوة الخلق بعين

لا يتمتع بمثلها أى شخص آخر .وقد أدرك أهل التصوف الإسلامى هذه الفكرة فقالوا منذ مئات السنين (لكل منطرعين تخصه)(٨)

فإذا أضفنا إلى هذه الفرادة فى الرؤيا لدى (فليسار)(تيمة الترحال)الغالبة على هذه المجموعة استطعنا أن ندرك مدى الثراء والتعدد والانفتاح المعرفى والشعورى الناتج عن اقتران الخلاق بين اكتشاف الفن،وثراء الترحال.

obeikandl.com